

غلبة السّلام

"وليتملك السّلام في قلوبكم"

"السّلام"، إنّهُ المطلب العميق من وراء كلّ محاولة إنسانيّة، لكنّه الرغبة البشريّة الضائعة غالباً! تتملّك في عالمنا الاضطرابات والحروب والشقاكات والخلافات التي لا تُعدّ! وتتوق البشريّة إلى السّلام؛ لكن هذه الأخيرة كلّها تطرد السّلام من دنيانا ومجتمعاتنا ونفوسنا أيضاً. إنّها الخطيئة التي تعادي السّلام وتمنعه، وتسلب من الإنسان راحته.

معنى السّلام، "سلام الله"، كما يقول بولس هنا وكما ميّز الربّ يسوع: "سلامي أعطيكم، ليس كما يعطي العالم السّلام!"، معنى "سلام الله" الذي دُعينا إليه ليس مجرد "هدنة" توقّف الصراع أو تمنع الحرب. السّلام هو علّة السعادة البشريّة والقلب المطمئن والفرح. لا سلام حقيقيّ (سلام الله) إذن إلاّ إذا تصالح الإنسان مع الله ومع القريب، وبالتالي مع ذاته أيضاً.

واليوم، بشكل خاصّ، البشريّة عطشى وتوّاقه إلى السّلام. ولكن، من هذا المنظور للسّلام، ما هي الدروب المؤدّية إليه؟ الدربُ إلى السّلام لا يبنها الملوكُ بفرض رهبةٍ معيّنة أو استقرارٍ سياسيّ. لا سلام إلاّ إذا رُفعت الخطيئة. لن يرتاح الإنسان قبل أن يرتاح إلى علاقته مع الله، وبالتالي مع القريب؛ عندها يتصالح مع ذاته، لأنّه يتأكّد أنّه هو كما يريد لذاته.

يتطلّب السّلام مع الله حفظ وصاياه، أي حفظ المحبّة، بمعنى المبادلة الإيجابية للحبّ الإلهيّ بالمحبّة البشريّة. الله يسعى إلينا ولن نكون بسّلام أمام أنفسنا إلاّ إذا استقبلناه وتقبلناه، لأنّ مَنْ يرفض الحبّ الإلهيّ يعادي شوق ذاته العميق، إنّ كان عن معرفة أو غير معرفة. لا قرار للإنسان إلاّ إذا استقرّ في علاقته الإيجابية مع الله.

وهذه العلاقة المستقرّة مع الله، تأخذ حياتها ضمن أطر نسَمّيها "العبادة"؛ وذلك، بكلّ ما تعنيه من طقوس وواجبات. إلاّ أنّ هذه العبادة ليست واجبات بقدر ما هي أداة لبناء السّلام في داخلنا واستقرار

القلب وثباته في حبّ الله. لذلك اشترط يسوع على هذه العلاقة- وهي الأساس في حياة الإنسان- ألاّ تقع في التنظير أو الرياء؛ لهذا أمرَ أن تُسالَمَ قَرِيبًا كشرطٍ أسبق لتقديم العبادة، "فإنّ قَدِّمْتَ قَرِيبَكَ إِلَى المذبح وهناك تذكّرتَ أن لأخيك شيئاً عليك، فاتركْ قَرِيبَكَ قَدَّامَ المذبح واذهبْ أوّلاً واصطلحْ مع أخيك، وحينئذ تعالَ وقَدِّمْ قَرِيبَكَ" (متى ٥، ٢٣-٢٤). لا يمكن أن نذهب إلى الهيكل ونحن على اضطراب مع القريب، إلّا في رياء العبادة، حاشى!

إنّ السّلام مع القريب متحرّك من قطبيّه، أي منيّ ومن القريب؛ وهو مهّدّد من الجهتين، فالأخطاء محتمّلة من الاتّجاهين. على عكس السلام مع الله الذي فيه الله ثابت بعهدّه أمّا المتقلّب فهو أنا الإنسان، من لا يحفظ العهد، ويتأرجح بين الحبّ والنسيان، بين الإيمان- الأمانة والخيانة.

لذلك تطرّق بولس الرسول- رسول السلام بامتياز- إلى الشرطين الأساسيين للمحافظة على السّلام مع القريب، وبالتالي مع الله. وهذان الشرطان هما المحبّة: "البسوا المحبّة التي هي رباط الكمال"، والمسامحة: "محتملين بعضكم بعضاً ومسامحين...". على هاتين الدعامتين الروحيّتين يُبنى السّلام وينتصب.

لا شكّ أن الدافع إلى السّلام هو المحبّة. فإذا كنّا لا نحبّ الله لا يهّمنا السّلام معه، وإذا كنّا لا نحبّ قريباً ما لا يعنيننا أي اضطراب في علاقتنا به. نعم المحبّة هي التي لا تحتل "الاضطراب" أو "الإساءة" منّا تجاه الآخر. المحبّة لا تقبل الشقاق. المحبّة لا تقبل البُعد. المحبّة تطلب الاتّحاد، ولا اتّحاد إلّا بالسّلام. نعم المحبّة متعبةٌ ومُقلقةٌ للخاطيء. ولو أنّ الإنسان يخطئ للآخرين، إلّا أنّ المحبّة أعمق ومتجدّرة في النفس البشريّة، لذلك فإنّها تتورّع عن كلّ اضطراب، المحبّة تطلب السّلام.

ولكن وإنّ طلبت المحبّة السّلام فهذا لا يكفي. ولطالما أحبّ واحدٌ قريباً له أو عاملاً معه أو رفيقاً في دربه أو خادماً في الكنيسة، لكنّه لم يتسالَمَ بعد معه! والسبب الفعليّ لذلك أنّ السّلام يطلب المسامحة والاحتمال. فإذا كانت المحبّة تقودني إلى عدم الإساءة أو إلى التوبة حين أسيء، فإنّ المسامحة تحتل الإساءة وتقبل توبة القطب الآخر في رباط السّلام الأخويّ. المسالِم ليس من كان أصدقاؤه دون خطيئة، المسالِم هو من يسامح أصدقاءً يخطئون إليه. أو ليست هذه المسامحة هي علامة المحبّة الكاملة! هذا هو السّلام الذي "دُعينا إليه في جسد واحد" هو جسد الكنيسة. لا يمكن

للسّلام مع الله أن يقوم إذا انهار سلامنا مع القريب! لا يقوم السّلام مع القريب على أساس العدالة وإنّما على أسس المحبّة والمسامحة، "سالّموا بعضكم بعضاً".

"ليملك السّلام في قلوبكم"، هذه هي وصيّة بولس عبد يسوع المسيح إله السّلام. وهذه الكلمة "ليملك" تعني ليصير السّلام هو الملك على قلوبكم والسّيّد الأوّل. المسيحيّ هو "عبد السّلام" وخادم السّلام. "طوبى لصانعي السّلام" (متى ٥، ٩). إذن السّلام هو الحاكم في خياراتنا. السّلام هو الموجه لحريّتنا. ليست أهواؤنا ونزواتنا وقناعاتنا هي المقرّرة في أحكامنا. السّلام هو السيّد الذي يفصل في كلّ شيء. أو بكلمة أخرى، المسيحيّ إنسان قرّر كسيّده، أن يدفع ثمناً للسّلام أيّ شيء يعاديه، ولا عدو للسّلام إلّا الخطيئة. السّلام هو غاية الحياة المسيحيّة، وعلينا أن نرمي أيّة مصلحة تعيق السّلام. المحبّة هي الدرب والسلام هو الوجهة- القبلة!

في كلّ أمر وعند أيّ خيار فليقرّر السّلام مفترق الأمور. عند كلّ اضطراب وفي كلّ خدمة سنأخذ قرارنا أن نحقق السّلام، على حسابنا أولاً ومن ثمّ بإقناع الآخرين. السّلام هو الحدّ المميّز بين أيّ خيار شرير أو خير. نحن خدّام السّلام مهما كان الثمن، حتّى نكران الذات ولو بضياح بعض الحقوق. لا شيء يعلو على السّلام لأنّه رباط الوحدة، "فطوبى لصانعي السّلام، لأنّهم أبناء الله يدعون"، أمين.